الفصل الخامس

ملامح عقلانية علمية جديدة

نسبوية المعرفة وأنسنة العلم

الفصل الخامس

ملامح عقلانية علمية جديدة

نسبوية المعرفة وأنسنة العلم

تقديم...

ذكرنا فيما سبق أن العقلانية العلمية عند فايرآبند لها شقان: أحدهما إبستمولوجي، وقد عبر عنه من خلال قوله بالنظرية البراجماتية في الملاحظة، وكيف أن الاختيار بين النظريات المتنافسة إنما يعتمد على البنية البراجماتية وليس على الوقائع أو لغة الملاحظة، كما أنها تعتمد على الخبرة الذاتية للملاحظ وليس الخبرة الحسية. أما الشق الثاني وهو الميثودولوجى المنهجي، فقد عبر عنه فايرآبند من خلال قوله بالفوضوية الإبستمولوجية التي تدعو إلى رفض وجود منهج علمي ثابت وتدعو إلى التعددية الميثودولوجية، كل شيء جائز في مجال العلم والمعرفة العلمية.

إن هذين الشقين إنما يعبران، في حقيقة الأمر، على صفة أساسية تلازم العقلانية العلمية عند فايرآبند، أعني صفة النسبوية فضلًا عن أن هذه الصفة إنما تعبر عن عقلانية ما بعد الحداثة الذي يعد فايرآبند أحد المعبرين عنها في

فلسفة العلم المعاصرة. كما إن قول فاير آبند «بالنسبوية» إنما يعبر عن الطابع الإنساني والاجتماعي لعقلانيته العلمية التي ينشدها، حيث يحاول من خلالها أن يؤكد على ضرورة أنسنة العلم والاهتمام بالوجود الإنساني ومشكلاته الناشئة عن سيطرة نمط واحد ووحيد من التفكير العلمي الغربي والهوة السحيقة التي تفصل بين الإنسان الفرد والمفاهيم العلمية المجردة كالصدق والموضوعية والمنهج العلمي... والتى لا يعرف كنهها إلا مبدعوها.

ولا شك أن «النسبوية» تعد من المصطلحات المنبوذة على المستوى الأكاديمي، حتى أن النقاد لا يجدون غضاضة في وصفها بكلمات من قبيل أنها مهلكة أو مميتة أو يصورونها على أنها تيار يهدد الموضوعية التي هي أساس الأبحاث والمناقشات الأكاديمية.

إن الغالبية العظمى من النقاد والباحثين يصورون النسبوية بأنها تهديد للمعايير العقلانية والعلمية والموضوعية.[1] لهذا درج الباحثون على إظهار الفروق العديدة بين الموضوعية والنسبوية. فأحد صفات الموضوعية اهتمامها بالطابع الكلي الشمولي، وهذا يتضح في اختيار الموضوعيين بين نظريتين متنافستين، حيث يقود هذا الاختيار معيار كلي شامل بحيث يفضلون النظرية التي تتوافق على نحو أفضل مع هذا المعيار، فالنظرية المطابقة لهذا المعيار الكلي الشامل الموضوعي هي النظرية الصادقة.[2]

إلا أن النسبوية تنكر وجود مثل هذا المعيار الكلي الشامل والموضوعي،

(1) Barnes. B & Bloor, D. Relativism, Rationalism and the Sociology of Knowledge. In: Hollis. M. & Lukes, S. (eds). Rationality and Relativism. the MII press, Cambridge, Massachusetts, 1982, PP. 21 - 47.

(2) آلان شالرز: نظريات العلم، ص106.

فالحكم على نظرية ما بأنها صادقة أو كاذبة هو حكم يتغير من فرد إلى آخر ومن جماعة علمية إلى أخرى، ذلك أن الهدف من البحث عن المعرفة يتوقف على ما يعده الفرد أو الجماعة العلمية المشتغلة بالعلم مهمًا أو له قيمة، ففي المجتمعات الرأسمالية الغربية، مثلًا، يوضع السعي نحو السيطرة المادية على الطبيعة في مقام رفيع، بينما تتضاءل قيمة هذا السعي في ثقافة يتم تصور المعرفة وسيلة لبلوغ السعادة والسلام.(1) ويذكر آلان شالمرز أن معايير الحكم على مزايا النظريات يتوقف، وفقًا للنسبوية، على قيم الفرد أو الجماعة ومصالحها، فالتمييز بين ما ينتسب إلى العلم وما لا ينتسب إليه يتغير وفقًا لهذه الوجهة من النظر، فإذا كان النيوتونيون يعتبرون النظرية التي تربط بين مد البحر وجذره وبين جاذبية القمر نظرية علمية، نجد أن جاليليو يعتبرها نهاية حدود العلم وبداية للتصوف الغيبي، لهذا ينكر أن يوجد صنف من المعرفة يسمى العلم، ويكون أفضل من أشكال المعرفة الأخرى.(2)

وهذا ما عبر عنه فايرآبند في عقلانيته العلمية، حيث أنكر أفضلية العلم الغربي على أشكال المعرفة الأخرى واعتبره تقليدا من بين العديد من التقاليد الأخرى، ومن هنا كان فايرآبند معبرًا عن النسبوية بالمعنى السابق، ولكن لا يعني هذا أن فايرآبند ينكر الموضوعية إنكارًا نهائيًا، بل يرى أن الموضوعية والنسبوية توأمان متخاصمان، ذلك لأن كليهما يفترض أن الأشياء كالعلم أو السحر أو وجهة نظر ما يتم تحديدها بطريقة جيدة عن طريق مجموعة من الحدود المعروفة، فالموضوعيون يعممون القوانين التي تتحكم في هذه

(1) المرجع السابق، ص106.

(2) المرجع السابق، ص107 - 108.

الحـدود، في حين أن النسـبو يين يصرون على الصحة المقيـدة للقوانين داخل نفس الحدود.[1]

وقـد حـاول فايرآبنـد أن يبـين في كتابه «ضـد المنهج» هشاشـة هذين الرأيـين: الموضوعي والنسـبوي، و يبين أنه ليس ثمة تعريف للعلم يسـتطيع أن يسـتوعب كل التطـورات الممكنة، وأنـه لا توجد ثمة صـورة للعيش لا تسـتطيع أن تسـتوعب كل التطـورات الممكنـة، وأنه لا توجـد ثمة صورة للعيش لا تسـتطيع أن تسـتوعب الموقف الراديكالي الجديد الذي يدعو إليه وهو العقلانية النسبو ية.

ولكن ماذا لو سـألنا فايرآبند عن ما يعنيه بالنسـبو ية؟ سـوف يجيب بأن مشكلة كلمة النسبو ية نابعة من أنها تشبه العديد من المصطلحات الفلسفية الغامضـة، إلا أنـه يقـرر بأنـه نسـبوي متحمـس وأن نسـبو يته مختلفة عن النسبو يات الأخرى.[2]

و يوضح فايرآبند بداية، المعنى الذي سيسـتخدم به مصطلح «النسبو ية» حيث يقول: «إن النسـبو ية التي أقدمها هنا ليسـت عن المفاهيم، و إنما هي عـن العلاقات الإنسـانية، إنها تتعامل مع المشـكلات التي تنشـأ عن صراع الثقافات المختلفة أو الأفراد، مع العادات والأذواق المختلفة.»[3]

و يعيـب فايرآبند بهذا القول على العقلانيـين الذين ابتعدوا عن الحياة إلى عالم المعرفة الآلية، فهم لا يضعون في اعتبارهم هذه الثقافة أو تلك، أو هذا

(1) Feyerabend, P.: Concluding Unphilosophical Conversation, P.515

(2) Ibid, P.507.

(3) Feyerabend, P. Farewell to Reason, P.83.

الفرد أو ذاك، إنهم يهتمون بالأفكار، كفكرة الحقيقة وفكرة الصدق وفكرة الموضوعية ولا يسألون كيف ترتبط هذه الأفكار بالوجود الإنساني، بل كيف ترتبط بكل فرد على حده، فعلى سبيل المثال، يسأل العقلانيون إذا كان الصدق مفهوم موضوعي، و إذا كانت الممارسة العلمية عقلية أو كيف تعتمد الحقيقة على الإدراك، ولكن ما علاقة الصدق والممارسة العلمية والإدراك والتى يتم تعريفها بطرق العقلانيين، بحياة العلماء والموجودات الإنسانية العادية؟ لا نجد، في حقيقة الأمر، إجابة عند العقلانيين.[1]

إن النسبوية المنشودة عند فايرآبند هي ضرورة العودة إلى الحياة الإنسانية والتعامل مباشرة مع مشكلاتها، على سبيل المثال، دراسة ردود أفعال الأفراد والمجتمعات مع المواقف العادية، فتعارض المثقفين يؤدي إلى تنوع في ردود الأفعال، إلا أنه ربما يكون هناك رد فعل دوجماطيقي، حيث يرى أن طريقه هو الطريق الوحيد الصحيح، وأن الطرق الأخرى خاطئة، إلا أن فايرآبند يرى أن الدوجماطيقية هذه تؤدي إلى نتائج مشئومة عندما تستخدم بوصفها مبدئا للتبادل الثقافي أو النمو الثقافي.[2]

ومن هنا كانت العقلانية النسبوية عند فايرآبند عقلانية إنسانية، إذا جاز لنا هذا التعبير، لما تعطيه هذه العقلانية من اهتمام كبير بالوجود الإنساني، وبالحياة الإنسانية وتفاعلاتها، ليس فقط مع عادات وتقاليد وثقافة البلد التي تنتمي إليها، بل يهتم بها في تفاعلاتها مع عادات وتقاليد وثقافات البلاد الأخرى.

(1) Ibid, P.83.
(2) Ibid, PP. 84 - 85.

منـذ أن صنـف «بروتاجوراس» الإنســان على أنه مقياس كل الأشـياء، الأشـياء الموجـودة على أنها موجـودة والأشـياء غير الموجودة عـلى أنها غير موجـودة، فإنـه بذلك قد وضـع البذور الأولى للنسـبوية، فقـد كانت هذه العبـارة دعوة معاكسـة ضد وجهـات النظر المسـيطرة في أثينا آنـذاك، وقد تأسـس على قول بروتاجوراس هذا تغـير الحقيقة بتغير الأفراد، بل وبتقلب الفـرد بين حالة وأخرى في لحظات مختلفة ومن ثم تبطل الحقيقة المطلقة، ولا تعـدو المعرفة أن تكون حقائق تتعدد بتعدد الأشـخاص، بل وبتعدد حالات الشخص الواحد.(1)

ويـرى فايرآبنـد أن للنسـبوية تاريخًا طويلًا يعـود إلى العصر البرونزي المتأخـر للشرق الأدنى، إلا أنها تم مناقشـتها وتحويلها إلى مذهب عن طريق اليونانيـين أثنـاء التحول مـن النظـرة الكوزمولوجيـة عند الفلاسـفة القبل سـقراطيين، إلى وجهـات النظـر النظريـة عنـد السوفسـطائيين وأفلاطون وأرسطو، كما توطدت دعائم النسبوية أكثر نتيجة الحركة الشكية في عصر التنوير، واليوم نعرض، النسـبوية على أنها سـلاح ضد الحكم الاسـتبدادي، والطغيان العقلاني وكوسيلة لكشف وفضح زيف العلم الغربي.(2)

ويعـرف فايرآبند «النسـبوية» بأنها عقيدة شـائعة يتـم التصدي لها عن طريـق هـؤلاء الذين يعتقدون أنهـم يعرفون الصدق، ويحاولـون أن يضعوا طريقـًا ثابتًا لحياة النـاس، إلا أن العديد من الناس يعتقـدون الآن أن ما هو حقيقي بالنسبة لشخص ما أو جماعة ما أو ثقافة ما ربما يكون حقيقيًا بالنسبة

(1) محمد فتحى الشنيطى: المعرفة. دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1981، ص7.
(2) Feyerabend, P. Notes on Relativism, In: Beyond Reason. P. 19.

لشخص أو جماعة أو ثقافة أخرى.[1] و ينتقد فاير آبند هؤلاء النسبو يين الذين يحاولون أن يجدوا الصدق المفرد المختبئ تحت كتلة من المعلومات المشوشة، و يصفهم بأنهم طامحون، وأنهم ير يدون أن يقدموا عبارات عامة وموضوعية عن طبيعة المعرفة والصدق، فإذا تم قبول المذهب الموضوعي على أنه وجهة نظر منفردة، فإننا لا نستطيع القول بتفوق المذهب الموضوعي على الأفكار الأخرى.[2]

إن فاير آبند لا يرفض المذهب الموضوعي كلية، ولكنه يرفض أن يكون المذهب الموضوعي هو الحكم الفصل في كل شيء، فتناول المشكلات المطروحة بالطر يقة الموضوعية - إن كان ثمة طر يقة موضوعية في الأساس - والنتائج المستنتجة منها ليست صحيحة بالنسبة للنسبوي لكي يتبناها، يقول فاير آبند: «إن الذي يستحق لقب النسبوي، هو الذي يكف عن تقديم تأكيدات عن طبيعة الحقيقة والصدق والمعرفة، وأن يلتزم بالخصوصيات بدلًا منها، كما أنه في مناقشاته مع الموضوعي ربما يستخدم مناهج وافتراضات موضوعية، إلا أن غرضه ليس في توضيح الحقائق الكلية والمقبولة دون غيرها، بل في إعطاء الفرصة لكل المعارف المتنافسة.»[3]

إن هذا التعريف الذي قال به فاير آبند يعمل على تأصيل التعددية وضرورتها في المجتمعات الحديثة، فالأفكار القديمة والكوزمولوجيات البدائية، و إن كانت تختلف عن ما تعارفنا عليه اليوم، إلا أنها ربما يكون لديها القدرة على خلق الوجود المادي والروحي لنا. إن الأفكار القديمة

(1) Ibid, P.77.

(2) Ibid. P. 77 - 78.

(3) Ibid, P.78.

والكوزمولوجيات البدائية، وإن كانت غير كاملة، فهي ليست عقيدة سماوية وبها عوائق كثيرة، إلا أنها غالبًا ما تقدم لنا طريقًا للتقدم نفتقر إليه. إن تعريف فايرآبند للنسبوية يستند على فكرة أساسية حاول إبرازها في عقلانيته، أعني فكرة التنوع أو التعددية، فالنسبوية ليست إقرارًا بأن كل فكرة تختلف من شخص إلى آخر أو من بلد إلى آخر، فهذا التعريف ناقص، بل النسبوية عنده تعني التنوع في وجهات النظر سواء كانت قديمة أم حديثة، وتنوع التقاليد القديم منها والحديث.

ويحاول فايرآبند أن يناقش بعض الانتقادات التي توجه إلى النسبوية التي ينشدها، فأول اعتراض على النسبوية يأتي من «كارل بوبر» الذي يرى أن النسبوية تعتبر الصدق فارغًا من المعنى، فوفقًا لبوبر فإن «النسبوية» هي «النظرية» التي تقول بأن النظريات المتنافسة هو أمر اعتباطي، ذلك لأنه إما ألا يكون هناك صدق موضوعي، وبالتالي لا يكون هناك ثمة نظرية حقيقية أو تقترب من الصدق بالمقارنة بنظرية أخرى، أو إذا كان هناك نظريتان أو أكثر فلا توجد ثمة طرق أو وسائل للتقرير أيهما أفضل من الأخرى، إلا أن فايرآبند ينتقد هذا التعريف الذي قدمه بوبر للنسبوية، ويرى أن المناقشات العلمية قد عملت على توطيد - وبأسلوب موضوعي، وسائل التقرير بين النظريات المختلفة، وقد أشارت هذه المناقشات إلى أنه يوجد العديد من هذه الوسائل والتي تفترض الاختيارات المختلفة.[1]

ومن ناحية أخرى، فإن بوبر يدعي أن «النسبوية» نظرية، وهذا يؤدي إلى الإبقاء على بعض الرؤى وحذف البعض الآخر، ونحن نرى، الحديث هنا

(1) Ibid, P. 80.

لفايرآبند، أن بوبر يوحد بين مشكلة موضوعية المعرفة، ومشكلة الصدق أو موضوعية النظريات، وربما يكون هذا التوحيد متاحًا في الفيزياء، إلا أنه لا يكون متاحًا في التاريخ وعلم النفس والمجالات العريضة من الحس المشترك.

ويرى بوبر أنه إذا كان ثمة جزءان غير متوافقين، فهذا يعني أن الأول خاطئ والآخر هو على صواب تمامًا، هذا الرأي من جانب بوبر يكشف، فيما يرى فايرآبند، عن ضعف الهجوم العقلاني والذي يمثله بوبر على النسبوية، فلماذا لا يكون ممكنًا أن نقول إن الأشياء التي تبدو متصارعة عن موقف ما تكون صحيحة؟ فالصورة التي يمكن أن ترى بطريقتين مختلفتين (كما هو الحال في المثال الذي أورده فتجنشتاين عن الأرنب والبطة) يمكن أن توصف بطريقتين مختلفتين، وأن كل من الجزأين يكون صحيحًا. وينتقد فايرآبند موقف آخر ضد النسبوية موجهًا من قبل هيلارى بتنام H. Putnam في كتابه «العقل والصدق والتاريخ «فتبدأ رؤية بتنام للنسبوية من خلال أنه لا توجد وجهة نظر تكون أكثر تبريرًا وصحة بالمقارنة بأخرى، فهو ينتقد هذه الوجهة من النظر عن طريق التساؤل: كيف يستطيع المرء أن يقبل أنه يوجد ثمة سبب لقبول وجهة نظر واحدة فضلًا عن الأخرى؟ إن الإجابة ببساطة بالنسبة للنسبوية، أنني أستطيع أن أقبل الآراء دون أن يكون لدي أي أسباب أو أن أعطي أي أسباب. ويناقش بتنام بعد ذلك ما يمكن تسميته بكلمات أخرى مثل «حقيقة بالنسبة لـ» ومعقولًا وفقًا للمعايير كذا وكذا» ومقبولًا لعضو في ثقافة ولتكن (أ)، فالنسبوية بهذا المعنى يجب عليها أن تقول على أية حال أن (ك) حقيقية بالنسبة لـ (ب) التي هي نفسها نسبية، إلا أن فايرآبند يرفض هذا التعديل الذي يدخله بتنام على النسبوية، حيث يريد أن يدخل مضمونًا موضوعيًا ولكن في شكل نسبوي. فهذا التعديل الذي يضعه في

شكل مضمون موضوعي إنما يتحدث بالفعل عن صحة فريق واحد ويكون من السهولة أن نحذف كلمة بالنسبة لـ. ونتيجة لهذه الانتقادات التي وجهها فايرآبند لنقاد النسبوية، رفض صور أخرى من النسبوية. فقد رفض فايرآبند النسبوية الانتهازية أو النسبوية العملية التي تضع حياة وأساليب الشعوب في اعتبارها من أجل السيطرة عليهم. فالنسبوية العلمية لديها الجزء الواقعي الذي تتعامل من خلاله مع السؤال: «كيف يمكننا التأثير في الآخرين؟» والجزء المعياري الذي يتعامل مع السؤال: «كيف ينبغي علينا أن نؤثر في الآخرين؟» أي كيف يجب أن نتعامل مع عادات وتقاليد دولة ما؟[1]

ويتخذ فايرآبند من العلم مثالًا على ذلك حيث يتم استخدام العلم للتأثير في الآخرين، إن فايرآبند يناقش في عقلانيته النسبوية تلك الدعوات التي تذهب إلى أن العلم - سواء العلم الطبيعي أو العلم الاجتماعي، أي النظري والتطبيقي وكمشروع من قبل العلماء، وكجزء أساسي من التعليم العام، والذى يهدف إلى الموضوعية ويستخدم الملاحظة والتجربة، والأسباب المفروضة بالقوة لتوضيح نتائجه التي هي واضحة ومقبولة منطقيًا، إنني أؤكد، والحديث هنا لفايرآبند، على أنه لا القيم ولا الوقائع ولا المناهج تستطيع أن تؤيد الدعوة التي تقول بأن العلم، والعلم المؤسس على التكنولوجيا، يتفوق على كل المشاريع الأخرى.

القيم:

ينظم الناس حياتهم بطرق مختلفة وعديدة، وهناك أفعال تبدو دقيقة

(1) Ibid, P.20.

وطبيعية في ثقافة ما، ورغم ذلك يتم نبذها و إدانتها في ثقافة أخرى. فالطبيب ربما يعتقد أن أشعة X يمكن أن تحدد بدقة مرض أحد أعضاء قبيلة إفريقية، إلا أن المريض يريد أن يستخدم طرقًا أخرى، لهذا فالرغبة في المعرفة والشفاء بطريقة الطبيب تصطدم مع الرغبة في الإبقاء على العزلة وسلامة البدن التي للعضو. فهل رغبة المريض رغبة معقولة؟ إنها معقولة بالنسبة للمجتمع الذي يؤمن بقيم العزلة وسلامة البدن، وأن الرجال الحكماء يعملون داخل هذا المجال، ويتم الدفاع عنه بهذه القيم، وهذه الرغبة أيضًا تعد غير معقولة بالنسبة لمجتمع آخر يدعي أن الفاعلية والسعي وراء المعرفة يتجاوز كل شيء، وهذا هو الأسلوب المتبع في العقلانية الغربية الكلاسيكية.[1]

ويرى فايرآبند أن التغيرات العقلية والسياسية والاقتصادية والعسكرية بين الثقافات المختلفة تعطي مثالًا على الطريقة التي تؤثر فيها القيم على الآراء والاتجاهات والأفعال، لهذا فإن كل فرد له أحكامه الوجودية الخاصة به، إنها أحكام العيش والتفكير والشعور والسلوك بطريقة معينة، وأن هذه الطبيعة الوجودية لهذه الأحكام هي ضد العقلانية الغربية الكلاسيكية التي هي السبب الرئيس لمنتجات العلم الغربي، والتي هي ليست الفيصل النهائي في كل شيء، إن الأحكام الوجودية تعتمد بشكل رئيس على نوع الحياة التي يريد المرء أن يحياها.[2]

الوقائع:

يرى فايرآبند أن الوقائع أيضًا، تتغير من منطقة إلى أخرى، فقد تشجع

(1) Ibid, PP.24 - 25.

(2) Ibid, P.30.

مناطـق معينـة المعرفة المجـردة وأخـرى المكتسـبة عن طريق الممارسـة، بينـما مناطق ثالثـة ترفض تفـوق التكنولوجيـا العلمية وتعتبرهـا بعيدة عن الوضوح.[1]

ويضرب فايرآبند مثالًا على ذلـك حيث يقول: لنفرض أننا قمنا بتصنيف عـدد من المـرضى لمجموعتـين: المجموعـة الأولى: يتـم معالجتهـا بالطريقة الغربية المقبولة (لنفرض أن هناك طريقة طبية واحدة). والمجموعة الثانية: يتم معالجتها بطريقة غير علمية ولتكن العلاج بالإبر الصينية. فهل نقول إن الطب الغربي هـو دائمًا صاحب النتائج الأفضل وفقًا للمعايير الغربية؟ وهل المناطق الأخرى غير الغربية والتي ترفض تلك المعايير وتؤمن بمناهج أخرى ناجحة لا تحقق مثل هذه النتائج؟[2]

إن الإجابة عند فايرآبند أن كل حضارة وكل منطقة تستخدم طرقها الطبية الخاصـة بها لشـفاء الأمراض، بالإضافة إلى أن التغـيرات الهامة التي حدثت في الطـب وتحوله إلى الموضوعية كانت تعتمد بشـكل رئيس على التطورات الاجتماعية والسياسية وليس على تطور المعرفة الطبية.

المناهج:

أمـا الاعتراض الثالث مـن أن العلم يفرض نفوذه على مجـالات الحياة عن طريق فرض منهج علمي ما، وبالتالي يسـتبعد كل شيء غير علمي ببسـاطة، أصبح غير موجود مع العقلانية النسبوية، حيث أن فرض منهج علمي واحد، فيـما يقـول فايرآبند فيه نوع مـن الانتهازية فكل شيء جائـز «Anything

(1) Ibid, P.30.

(2) Ibid, P.31.

Goes» هذا الشعار هو المسئول عن تقدم المعرفة بوصفها فهمًا عن طريق الباحث أو تقليد بحث ما. إن شعار «كل شيء جائز» يعني وضع الفنون المثيرة للإعجاب والتكنولوجيا وعلوم الثقافة والحضارة والاكتشافات الجديدة والقديمة في الاعتبار، فهذه الاكتشافات تبين أن كل الأمم، وليس فقط بعض البلاد الصناعية، لديها إنجازات الإنسانية المفيدة، فربما يوجد قبيلة صغيرة تكون قادرة على عرض رؤى جديدة للفكر الغربي، وربما تقنع المفكرين بأن العلم والعقلانية العلمية ربما لا يكونان شكلين مرضيين للحياة.(1)

أشكال النسبوية في العقلانية العلمية النسبوية

أ- النسبوية التعددية:

لهذا يمكن أن ننتهي إلى القول إن إحدى صفات العقلانية النسبوية عند فايرآبند هي أنها «عقلانية نسبوية تعددية»، ذلك لأنها تؤمن أن تاريخ الأفكار والمناهج والأحكام يعد جزءا مهما للممارسة المتطورة في العلم وللعقلانية العلمية المنشودة، ويستشهد فايرآبند «بجون ستيوارت مل» الذي نصح الباحثين في كتابه «الحرية» أن يبقوا ليس فقط على الأفكار التي تم اختبارها وظهر ضعفها، بل أيضًا بأن يضعوا في اعتبارهم التصورات والأفكار الجديدة والتي لم يتم اختبارها بعد.(2) لهذا فإن استخدام حجة معاكسة لرفض التصورات والأفكار الجديدة أو البدائل - بتعبير فايرآبند -

(1) Ibid, P.33.

(2) Ibid, P.36.

هو أمر غير وارد بالنسـبة للعقلانية النسبوية، ذلك لأن كل إنجاز علمي قد تم ليس اسـتنادًا لسـلاح أو منهج واحد، بل وفق أسـلحة متنوعة كالأدوات والتصـورات والحجج والفروض الأساسـية، إلا أن هذه الأسـلحة تتغير مع تطور وتقدم المعرفة، لهذا ينتهي فايرآبند إلى القول: «بأنه لا يوجد ثمة حجة علميـة تقف ضد وجهـات نظر غير علميـة، أو وجهات نظـر علمية قد تم اختبارهـا وظهر ضعفها، بل يوجد حجج (مقبولـة ولكن غير نهائية) لخدمة التعدديـة التي تتضمن أجزاء المعرفة العلمية التي تم تفنيدها، وأيضًا المعرفة غير العلمية والخالية من المعنى وأيضًا التصورات والأفكار الجديدة.»[1]

ويعطـي لنا فايرآبنـد توضيحًا لكيفيـة وضع عقلانية نسـبوية تعددية، ذلـك لأن الأفراد والجماعات والحضارات الكاملة ربما تسـتفيد من دراسـة الثقافات والمؤسسـات والأفكار المغايرة، فعلى سبيل المثال، يمكن للكاثوليك الرومان أن يسـتفيدوا من دراسـة البوذية، ويمكن الأطباء أن يسـتفيدوا من التقابل بين السـحر الأفريقي والطب ويمكن لعلماء النفس أن يستفيدوا من دراسـة الطرق التي شـيدها بعض الروائيين والممثلين لشخصياتهم، والعلماء - بوجـه عام - يمكن أن يسـتفيدوا من دراسـة المناهـج ووجهات النظر غير العلمية، وبوجه عام يمكن للحضارة الغربية أن تتعلم من اعتقادات وعادات ومؤسسات الشعوب البدائية.[2]

لهـذا يمكن القول إن عقلانيـة فايرآبند النسـبوية التعددية ضد «إجماع الرأي» على شيء واحد، ذلك لأن الإجماع على رأي واحد، والاعتقاد أن هذا

(1) Ibid, PP. 20 - 21.

(2) Feyerabend, P.: Science in a free society, Low & Brydone Ltd., London, 1978, P.88.

الرأي صادر عن الخبراء، إنما يكون في الغالب الأعم رأي متحيز وغير جدير بالثقة أو الاعتماد عليه. ذلك لأن الخبراء غالبًا ما يصلون إلى نتائج مختلفة سواء في الموضوعات الأساسية أم في التطبيقات، و يعطي فايرآبند أمثلة من الحياة العادية التي نعيشها فهو يقول: «من منا لا يعرف على الأقل حالة واحدة من هذه الاختلافات التي نتحدث عنها في عائلته، فقد ينصح طبيب ما بعملية جراحية معينة، بينما نجد الآخر يحاول البرهنة على ما هو ضدها، بينما الثالث يقترح إجراءً مختلفًا تمامًا؟ من منا لا يقرأ المناقشات الكثيرة حول الأمن النووي والاقتصادي وتأثيرات المبيدات القاتلة وفاعلية طرق التعليم وتأثيرات العرق على الذكاء؟ ففي هذه المناقشات نجد المؤيدين لرأى ما والمعارضين له في نفس الوقت، إلا أننا في ثقافتنا نرى الإجماع على رأي واحد، وهذا في الغالب ينبع من قرار سياسي، وأن كل من يخرج عن هذا الإجماع يعد مخالفًا وخارجًا عن الإجماع فيتم قمعه من أجل المحافظة على سمعة العلم الذي يعد مصدرًا جديرًا بالثقة والمعرفة التي لا تخطئ.»[1]

ومن ناحية أخرى، فإن «الإجماع على رأي واحد» من وجهة نظر فايرآبند، هو نتيجة لتحيزات مشتركة، فالأوضاع تؤخذ بدون فحص أو تمحيص للموضوع المراد إعادة النظر فيه، كما يتم إدماجه في نفس السلطة التي تنبثق من البحث التفصيلي.

ومن ناحية ثالثة فإن «الإجماع على رأي واحد» ربما يؤدي إلى نقص في الوعي النقدي الذي هو جوهر العقلانية النسبوية التعددية عند فايرآبند، ولكن ماذا لو سألنا فايرآبند: ما الذي يكشف خطأ «الإجماع» هل هم

(1) Ibid, P.88.

العلماء؟ أو بتعبير آخر ما الذي يتصدى لخطأ «الإجماع»؟ يجيب فايرآبند بأن الذي يكتشف خطأ «الإجماع» هم الهواة، ذلك لأن العلم تقدم عن طريق «اللامنتمين» إليه، أو عن طريق العلماء الذين لديهم خلفية غير عادية مثل أينشتاين وبوبر وبودون حيث كانوا هؤلاء من الهواة. ويضرب فايرآبند على قوله هذا عدة أمثلة فيذكر أن شليمان Schlimann الذي كان رجل أعمال ناجحًا قد فند فكرة أن الأسطورة والخرافة ليس لهما مضمونًا واقعيًا، وكذلك ألكسندر مارشاك Alexander Marshack الذي كان صحفيًا قد فند فكرة أن الإنسان في العصر الحجري كان عاجزًا عن التفكير المعقد. وأيضًا روبيرت أردري Robert Ardrey الذي كان كاتبًا مسرحيًا، قد دخل مجال الأنثروبولوجيا وذلك لرأيه في العلاقة بين العلم والشعر، وقد قام الشيوعيون الصينيون في الخمسينيات بإدخال الطب الصيني التقليدي داخل الجامعات وبدءوا رسم خطوط مهمة للبحث وقدموا للعالم معرفة قليلة وبسيطة بدلًا من المعرفة المعقدة للطب الغربي «العلمي.»[1] ولا يعني هذا القول من فايرآبند إلغاء دور العلماء في مجال العلم، فهذا ما لا يقره فايرآبند ولا ينبغي أن يقر ذلك، بل ما يريد فايرآبند أن يذهب إليه هو أن العلم في حاجة إلى الخبير والهاوي. إن العلم في حاجة إلى التعددية وليس الإجماع.

ب- النسبوية المعرفية:

إن إحدى صفات العقلانية النسبوية عند فايرآبند هو إيمانها بنسبية الصدق والحقيقة الموضوعيين، حيث يتناول فايرآبند مشكلة الصدق والحقيقة الموضوعيين بالمناقشة والنقد، فليس ثمة صدق موضوعي أو حقيقة

(1) Ibid, P.89.

موضوعيـة في العلـم، حيـث أن الصدق نسـبي مـن منطقـة إلى أخرى ومن مـكان إلى آخر ومن شـخص إلى شـخص، ويهتم فايرآبند هنـا بإبراز وجهة نظر بروتاجوراس النسبوية، وخاصة عباراته التي تعد من الشواهد القليلة والمباشرة لبروتاجوراس، أعنى «أن الإنسـان مقياس الأشـياء جميعًا، الأشياء الموجودة على أنها موجودة والأشـياء غير الموجـودة على أنها غير موجودة»، فهـذه العبـارات قـد نقلـت مشـكلة المعرفـة مـن «الموضـوع» إلى الذات العارفة، فأصبح الإنسـان الفرد هو مقياس جميع الأشـياء، ويتناول فايرآبند بروتاجوراس من زاويتين، ليثبت من خلالها النسبوية المعرفية :

الزاوية الأولى: هو قول بروتاجوراس بأن القوانين والعادات والأخلاق كلهـا نسـبية، وأن معايير الصحة بالنسـبة لهـذه المعايير هم الأفـراد الذين يمارسـونها داخل مجتمع ما، فالقوانين والاعتقـادات الدينية والأعراف عبارة عـن مجـالات مقيدة بقانون مـن يؤمن بها، فهـي غير صحيحة بالنسـبة لهم، وربمـا لا تكون صحيحة بالنسـبة للآخرين. أما الزاويـة الثانية: فهي قول بروتاجوراس بنسبية الحقيقة والصدق.

إن النسـبوية المعرفية التـي تعد جوهـر العقلانية عنـد فايرآبند، تنكر أن تكـون ثمة أفكار جديدة أو أشـكال معرفية جديـدة تفرض نفوذها على التقاليـد الأخـرى، وتثبـت أن هناك تقليـدا واحدا هو الصحيـح بحجة أنه موضوعـي، لهذا فـإن فكرة الصدق الموضوعي أو الحقيقـة الموضوعية، وإن كانت مسـتقلة عن الرغبات الإنسـانية، إلا أنها تكتشف عن طريق التأثير الإنسـاني. بالإضافـة إلى أن النظريـات العلمية تتفـرع إلى اتجاهات مختلفة وتستخدم تصورات مختلفة وأحيانًا غير قابلة للقياس، فأي من هذه المضامين

المتعـددة يوصف بأنه دليلًا عـلى موضوعية نظرية ما؟ وأي منها يوصف على أنه إجراءً علميا موضوعيا مناسبا لها؟ إن الإجابة، لا يوجد، فكل هذا يعتمد عـلى الاتجاهـات والحجج التي تتغير مـن وقت لآخر ومـن جماعة بحث إلى جماعة بحث أخرى لاحقة لها.

ويسترشد فاير آبند بكل من إيرنهافت Ehrenhaft وميليكان Milikan فقد عملا على نفس المشكلة وهي شحن الإلكترون The Charge of Electron مسـتخدمين معطياتهم بطرق مختلفة، واضعين في اعتبارهما اختلاف الأشياء كوقائع، إلا أن الاختلاف في النهاية قد زال. ولكن أصبح شيئًا جوهريًا ومهما وحدثًا مثيرًا في تاريخ العلم، كما نجد أن أينشتاين والمدافعين عن المتغيرات المختبئة في نظرية الكوانتم استخدموا معايير مختلفة لتطوير النظرية، هذه المعايـير كانت ميتافيزيقية، عـلى الرغم من أنها كانـت مرضية من الناحية التجريبية ومصاغة صياغة رياضية.[1]

ومما هـو جدير بالذكـر أن النسـبوية المعرفية ترتبط أشـد الارتباط بما يمكن تسميته بـ «النسبوية الإدراكية» التي ترى أننا لا نعيش في عالم واحد موضوعي، بـل نعيش في عوالم مختلفة، ذلك لأن العـالم الحقيقي، فيما يقول سـابير Sapir، هو ما يتم بناءه من خلال عـادات وتقاليد واعتقادات جماعة ما، فنحن نرى ونسـمع، وبطريقة أخرى نخبر على نطاق واسع ما نعلمه من خلال مجموعة من الاعتقادات التي تحدد لنا تفسير العالم.[2]

وإذا رجعنا إلى فلسـفة العلم المعاصرة سـنجد هذه النسـبوية الإدراكية

(1) Ibid, P.75.

(2) Hollis. M. & LUKES, S.: Rationality and Relativism, PP. 7 - 8.

بوضوح في التجارب الجشـطلتية التي تصور طبيعة تحولات الإدراك الحسي، فقـد يكـون هناك شيء واحـد موضوعًا لـلإدراك الحسي، ونرى فيه أشـياء مختلفـة بحيث مـا يراه الشـخص (أ) يختلف عما يراه الشـخص (ب) مع أن موضوع الإدراك واحدًا(*).

ويعـد «توماس كـون» من أبرز فلاسـفة العلم المعاصريـن تطرقًا لهذا

(*) قام فيلسوف العلم المعاصر «هانسون Hanson، N. R.» بتوضيح هذه الفكرة عن طريق إعطاء أمثلة كثيرة تبين دور الخبرة الشخصية والاعتقادات المسبقة والتوقعات على عملية الإدراك الحسي، فلو كان لدينا هذا الشكل:

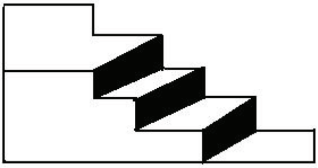

فسيرى أغلبنا أول الأمر سلمًا يظهر لنا منه وجه درجاته الخارجي، بحيث يمكن أن نتصور إنسانًا يسير على درجات السلم المظللة، غير أننا نستطيع أن نراه على وجه آخر فقد نجد سلمًا يبدو منه الوجه الداخلي لدرجاته بحيث تكون الأجزاء المظللة هي خلفيات درجات السلم وغالبًا ما ندرك بالإضافة إلى ذلك إذا ما نظرنا إلى الصورة بعض الوقت أننا نرى السلم تارة من فوق وتارة من تحت وهذه التغيرات في إدراكاتنا تقع بكيفية لا إرادية ولا أحد يشك في أن هذا الشكل يتعلق بسلم لكن بعض الأفراد في عدة قبائل وينتمون إلى ثقافة ما لا علم لهم في ثقافتهم بالمنظور الثنائي الأبعاد لأشياء ثلاثية الأبعاد فإنهم في هذه الحالة لا يرون سلمًا بلا ترتيبًا في الخطوط ثنائي الأبعاد.

- Hanson, N. R.: Patterns of Discovery: An Inquiry into the Conceptual Foundations of Science, N. Y. Cambridge Uni. 1958.

وانظر أيضًا الدراسة التي قام بها فايرآبند لنقد ومراجعة الكتاب السابق.

- Feyerabend, P. K.: Patterns of Discovery. The Philosophical Review vol. 69. N.Y. Ams. Perprint Co. 1960, PP. 247 - 525.

وأيضًا، آلان شالمرز: «نظريات العلم»، ص35 - 36.

الموضوع، أعني النسبوية الإدراكية، وذلك في كتابه «بنية الثورات العلمية» في الفصل المعنون «الثورات بوصفها تغيرات في النظر إلى العالم»، حيث يرى أن مؤرخ العلم ربما يدعي أن النماذج الإرشادية «البراديم» عندما تتغير، فإن العالم نفسه يتغير معها، فعن طريق النموذج الإرشادي الجديد ينقاد العلماء لتبني أدوات جديدة وينظرون إلى أماكن جديدة، بل أهم من ذلك أثناء الثورات يرى العلماء أشياءً جديدة ومختلفة عندما ينظرون من خلال أدواتهم المألوفة من الأماكن التي قد نظروا من خلالها من قبل، ويبدو الأمر كما لو أن الجماعة العلمية المتخصصة قد انتقلت فجأة إلى كوكب آخر حيث تبدو الموضوعات المألوفة التي تم رؤيتها في ضوء مغاير، وقد ارتبطت بموضوعات غير مألوفة وبالطبع فإن شيئًا من هذا لم يحدث، فليس ثمة تحول في المواقع الجغرافية، وكل شيء في شئون الحياة العادية يسير كعادته خارج المعمل كما هو من قبل، ومع ذلك فإن تغير «النموذج الإرشادي» «البراديم» يجعل العلماء يرون العالم الخاص بموضوع بحثهم بطريقة مختلفة، وطالما أن تعاملهم مع هذا العالم لا يكون إلا من خلال ما يرونه ويفعلونه، فإننا يمكننا القول أنه بعد الثورة العلمية يجد العلماء أنهم يستجيبون لعالم مختلف.(1)

وقد اعطى «توماس كون» أمثلة من الوقائع التاريخية على ما يذهب إليه مثل اكتشاف سير وليام هورشيل لكوكب أورانوس والنموذج الإرشادي «البراديم» الذي قدمه كوبرنيقوس حيث رأى من خلاله علماء الفلك أشياءً جديدة وعالما مختلفا تمامًا، فالعالم، كما يقول توماس كون، الذي يعتنق نموذجا إرشاديًّا جديدا «براديم» كالرجل الذي يرتدي عدسات عاكسة، فهو

(1) Kuhn. T. S.: The Structure of Scientific Revolution ز P. 110.

و إن كان يواجـه نفس الموضوعات التي واجهها من قبل و يعرف أنه يفعل ذلـك، إلا أنـه يجد أن هـذه الموضوعات قد تحولت تحولًا كامـلًا في كثير من تفاصيلها.[1] أما بالنسبة لفايرآبند فلا نجده يختلف كثيرًا عن توماس كون في تأكيده على نسبوية الإدراك، حيث يرى فايرآبند أن تغير المبادئ الكلية يـؤدي إلى تغير العالم الكلى، لهذا لا يمكن أن نتحدث عن عالم موضوعي أو نفترضه، حيث لا يوجد عالم بمنأى عن تأثيراتنا الإبستمولوجية، لهذا كانت العقلانية النسبوية عند فايرآبند تدعو إلى نسبوية المعرفة وبالتالي نسبوية الإدراك.

جـ- النسبوية الليبرالية:

إن العقلانية النسبوية عند فايرآبند يتمخض عنها نتائج سياسية هامة وهي «النسبوية الليبرالية» التي تدعو إلى التعددية داخل المجتمعات الديمقراطية، وتعمل على تشجيع تنوع التقاليد وتطورها. كما تدعو «النسبوية الليبرالية» إلى أن المجتمعات المكرسة للحرية والديمقراطية يجب أن تؤسس بطريقة بحيث تعطي لكل التقاليد الفرص والحريات المتساوية، والعلم يجب أن يعالج بوصفه تقليدًا وليس بوصفه معيارًا حاكمًا على الشيء الذي يمكن قبوله أو الذي لا يمكن قبوله.[2]

فالنسبوية الليبرالية تدعو إلى مساواة التقاليد كلها وليس فقط مساواة حرية تقليد جزئي واحد، فالتقاليد وليس الأفراد هم موضوع النسبوية الليبرالية، لهذا فهي تصرح بأن المؤسسات الحكومية في المجتمعات

(1) Ibid, P.121.

(2) Feyerabend, P. Farewell to Reason: Notes on Relativism ز PP. 39 - 40.

الديمقراطيـة يجـب أن تكيف عملها مع التقاليد بدلًا من اسـتخدام الضغوط المؤسسـية لتكييف التقاليد مع عملها، فالمؤسسـات الطبية على سـبيل المثال، يجـب أن تأخـذ «التابو الديني لمجموعـة خاصة في اعتبارها بـدلًا من محاولة إخضاعـه لمقارنات مع أحدث الصيحات الطبية، فربما نتعلم من قبائل أخرى مازالت تسـتخدم الطـرق البدائية في الطب ونحترم طرائقهـم حتى لو بدت عديمـة الفائدة. ولهذا ينتهي فايرآبند إلى القول بأن النسـبوية الليبرالية تؤيد «الحريـة» من أجل العلوم وتؤيد الحريـة النابعة من العلوم، فهو يقول: «إن العلـم في ديمقراطيتنا المنشـودة يحتاج إلى وقاية وحماية مـن تقاليد غير علمية كالعقلانية والماركسية والمدارس اللاهوتية، وبالمثل فإن التقاليد غير العلمية في حاجـة أيضًا إلى وقاية وحماية من العلم، فالعلماء ربما ينتفعون من دراسـة منطق التاو Tao إلا أن الدراسـة يجب أن تنبثق من الممارسـة العلمية الذاتية، فالمشاركون في الطب الصيني التقليدي ربما يتعلمون الكثير من التناول العلمي لأمراض الإنسان، ولكن عملية التعلم ذاتها يجب أن يتم إنجازها بحيث تكون منبثقة من ذواتهم وليسـت مفروضة عليهم من قبل مؤسسـات الدولة.

إن القرارات الديمقراطية يمكن أن تفرض حدودها على أي موضوع وعلى أي تقليـد، إلا أن المجتمـع الحر لا يجـب أن يترك تحت رحمة المؤسسـات بل يجب أن يراقبها ويتحكم فيها.»[1] ويتمخض عن هذا القول، دعوة فايرآبند للنسبوية الديمقراطية التي ترى أن «المواطنين وليس جماعات خاصة ما، هم الذيـن لديهم الكلمة الفصل في تقدير ما هو الصواب والخطأ، وما هو النافع وغـير النافع في مجتمعاتهم.»[2] إلا أن هـذا القول قد يؤدي بالبعض إلى القول

(1) Ibid, P.50.

(2) Ibid, P.61

بأن النسبوية الديمقراطية التي ينادي بها فايرآبند تعلن رفضها للموضوعية وتقر بالذاتية، إلا أننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن النسبوية الديمقراطية لا تستثني البحث عن الموضوعية وترحب بالبحث الذي يكرس لإيجاد الحقائق الموضوعية، إلا أنها تتحكم في هذه الحقائق عن طريق الرأي العام «الذاتي» وبالتالي يتم معالجة «المذهب الموضوعي» وفق النسبوية الديمقراطية، على أنه تقليدا وليس بوصفه البنية الأساسية للمجتمع.

ولهذا كانت النسبوية الديمقراطية ليست فلسفة تعطي القوة للديمقراطيات الحديثة، بل تم انتدابها هنا لإقصاء مراكز القوى، والإقرار بأن القرارات الهامة يتم تقديمها عن طريق الخبراء أو ممثلي الشعب أو عن طريق الشعب ذاته، إنها تبدو نقطة بداية جيدة لهؤلاء العقلانيين الغربيين ليحسنوا من حياتهم ووجودهم الإنساني، وذلك لأن النسبوية الديمقراطية تعمل على تشجيع المناقشات والحجج. والبناء الاجتماعي يقوم على المناقشة والحجج.

النسبوية والحرية الإنسانية في المجتمع

لا شك أن النسبوية الليبرالية التي ينادي بها فايرآبند كإحدى سمات العقلانية النسبوية لديه، ترتبط أشد الارتباط «بالحرية» فالحرية، إذا جاز لنا القول، تعد التاج الذي يتوج عقلانية فايرآبند العلمية، حتى أننا يمكننا القول إن فايرآبند قد انتدب نفسه للدفاع عن الحرية الفردية التي تقف ضد كل الصيغ الشمولية التي تفرض مركزيتها وتستبد بالفرد. وليس أدل على ذلك من مؤلفه الذي يدعو فيه إلى المجتمع الحر. ودور العلم فيه، أعني

«العلـم في مجتمع حر». فقد طالب فايرآبنـد أن يكون ثمة حرية في التفكير والمناقشـة داخل المجتمع الذي نعيش فيه، فالحرية، عند فايرآبند، تكمن في التحرر من سـيطرة المؤسسـات ومناهج التعليم على عقولنا، والسماح لأكبر قدر ممكـن من الأفكار والتقاليد الأخرى، يقـول فايرآبند: «يجب أن ندرك أن الحرية التي أنشدها ربما تكون صحيحة في ضوء الأفكار التي تعمل على زيـادة حريتنا.»[1] فتحرير الأفراد ليس عن طريق إخضاعهم لنوع جديد مـن العبودية سـواء كانت هـذه العبودية منهجًـا علميًا ثابتـا أم أيديولوجيا سياسية جامدة، بل التحرر يعنى إدراكهم لرغباتهم الخاصة.[2]

ولا شـك أن رفض فايرآبند لوجود منهج علمي ثابت يصف تاريخ العلم، ورفضـه للعقلانيـة العلمية المسـتندة على ذلـك المنهج، إنما يعـبر عن موقف إنساني في المقام الأول، يناصر النزعة الفردية ويؤمن بالحرية والإنسانية.

وقـد عالج فايرآبند مشـكلة الحرية من خلال رفضه للعقلانية المسـتندة على القواعد والمعايير الثابتة، ونادى بضرورة تحرير الفرد من هذه العقلانية الجوفاء، فلكي تكون عقلانيًا، من وجهة نظر هؤلاء الذين يقدمون ادعاءات بضرورة الانصراف إلى العقلانية، يجب أن تسـير عـلى قواعد ومعايير تؤدي إلى الميثودولوجيا التي هي مجموعة من القواعد تعمل على نبذ الفرضيات التي تتعارض مـع الوقائع وتتجنب الفرضيات المسـاعدة. فالعلـم يتقدم من هذه الوجهة من النظر، لأنه عقلاني، وهو عقلاني لأنه لديه المنهج الصحيح. إلا أن فايرآبند، وكما سبق الإشارة إلى ذلك، يقف بشدة ضد هذا الموقف، ويرى أن

(1) Feyerabend, P. How defend society against science: In (ed) by Ian Hacking: «Scientific Revolution, Oxford, 1981, P.166.

(2) Ibid, P.166.

شعاره الذي رفعه ليكون الأساس الذي تستند عليه عقلانيته بوجه عام وهو «كل شيء جائز»، يصف الموقف الذي يدعو إليه ببساطة من وجهة النظر العقلية وليس من خلال الاقتراحات الميثودولوجية التي تفرضها العقلانية العلمية الكلاسيكية. فالنتيجة المباشرة لهذا الشعار الذي يرفعه فايرآبند هي «النسبوية»، فكما يعتقد فايرآبند، فإن البنية الأساسية للمجتمع الحر هي البنية الوقائية التي تضمن لكل التقاليد الحقوق والحريات المتساوية، فإذا تقدمت التقاليد من خلال هذه الوجهة من النظر، فإن اختيار تقليد واحد كأساس للمجتمع الحر سيكون فعلًا اعتباطيًا ويمكن تبريره فقط عن طريق الالتجاء إلى القوة والسلطة، وهذا أمر مرفوض في عقلانية فايرآبند التي تنشد دائمًا الحرية الفردية.[1]

ويمكننا القول أن تفكير فايرآبند في مجال الحرية الإنسانية التي ينادي بها كأحد الأسس الهامة لعقلانيته النسبوية قد تتبلور نتيجة تأثره بشخصية الفيلسوف الإنجليزي «جون ستيوارت مل» J.S.Mill (1806 - 1873) وخاصة كتابه «الحرية» 1859 الذي يدافع فيه «مل» عن الحرية الفردية. يقول فايرآبند: «لقد تعلمت من جون ستيوارت مل، وخاصة في كتابه «الحرية» أن وجهات النظر العالمية المختلفة لا ينبغي أن توضع جانبًا، ولكن يجب استخدامها لتحسين مناخ المعرفة، ووضع كل وجهات النظر وصور الحياة المختلفة في الاعتبار، فهذه التعددية التي قال بها «مل» هي التي ساعدتني في وضع نظرية الاختبار.»[2] فالفكرة الأساسية في كتاب «مل»

(1) Munevar, G.: Science in Feyerabend's Free Society, In Beyond Reason, PP. 179 - 198.

(2) Feyerabend, P. Concluding Unphilosophical Conversation, PP. 487 - 527.

هـي إبرازه لـضرورة «التعددية»، أي ضرورة وجـود مجموعة كبيرة ومختلفة من الأنماط وأسـاليب التفكير، هذه التعددية هي التي تتيح «للفرد» حرية كاملـة في التقدم في جميـع الاتجاهات، وأن مـا يعوق هذه الحريـة الفردية، هي سـلطة المجتمع أو الدولة التي تفرض على الفرد أفكار وعادات المجتمع بوسـائل أخرى غير العقاب القانوني، باعتبار أن هذه الأفكار والعادات تعد قواعد سلوك لا يمكن الخروج عليها.[1]

وهكذا فـإن ما يحبه المجتمع وما يكرهه هو العامـل الرئيس الذي يحدد القواعـد التي يجـب أن يراعيها الجميـع تحت التهديد بعقوبـات القانون أو الـرأي العام، فضلًا عـن أن آراء النـاس تتأثر بجميع العوامـل العديدة التي تؤثر في رغباتهـم، فهم متأثرون أحيانًا بمنطقهـم، وأحيانًا أخرى بخرافاتهم وتحيزاتهـم، وفي كثير من الأحيان بميولهـم الاجتماعية. وحينما تكون هناك طبقة مسـيطرة فإن قسـمًا كبيرًا من أخلاق البلاد ينبثق من مصالحها الطبقية ومشاعرها بالتفوق الطبقي.[2]

إن الحريـة التـي ينادي بها «مل» هي حريتنـا في العمل على تحقيق خيرنا بطريقتنـا الخاصة مـا دمنا لا نحاول حرمان الآخرين مـن خيرهم أو نعرقل جهودهـم في الحصـول عليهـا. لهذا يـرى فايرآبنـد إن إمكانيـات المذهب الليبرالي عند «مل» يمكن من خلاله أن نعطي مجالًا رحبًا لكل رغبة إنسـانية لـكي تتحقق، فهو يؤكـد، أي «مل»، أن ليس ثمة مبـادئ عامة تحكم الأفراد

(1) جون ستيوارت مل: «الحربة» ترجمة عبد الكريم أحمد. مراجعة د. محمد أنيس. الجزء الأول. الألف كتاب «581» مؤسسة سجل العرب. لقاهرة 1966. ص28.

(2) المرجع السابق: ص30.

أو الجماعـات مـن الأفراد الذين قرروا أن يناضلوا من أجل هدف مشـترك، فعلى سبيل المثال، لا توجد محاولة لتقديم مبدأ للحياة الإنسانية يكون مقدسًا يربط الجميع في المذهب الليبرالي عند «مل».[1]

إن سـبب أخـذ فايرآبنـد بالمذهـب الليبرالي «ملـل» كمثال مـن تاريخ الفلسـفة راجع في الأسـاس إلى أن هذا المذهب يسـتند عـلى «التعددية» في الآراء، فإننا لا نسـتطيع، حسب ما يذهب «مل»، قط الجزم بأن الرأي الذي نحاول إخماده يظل مع ذلك شرًا. فحرية الرأي والتعبير ضرورية لخير العقل الإنساني، وهذا الخير يعتمد على أربعة أسس متميزة يسترشد بها فايرآبند دائمًا في كتاباته:

أولًا: لأن الرأي الذي تحاول السـلطة إخمـاده قد يكون صحيحًا، وأولئك الذين يريدون إخماده ينكرون صحته، ولكنهم ليسـوا معصومين، فليسـت لديهم سلطة الحكم في الموضوع نيابة عن الجنس البشري كله، واستبعاد كل شخص آخر عن وسائل الحكم عليه، وهم إذ يرفضون السماع بالاستماع إلى رأي، لأنهـم متأكدون من أنه خطأ، إنما يفترضون أن يقينهم هو نفس الشيء وهو «اليقين المطلق»، فكل إخماد للمناقشـة افتراض للعصمة فينا، فالعصور ليسـت أكثر عصمة من الأفراد، فقد اعتنق كل عصر آراء اعتبرتها العصور اللاحقة سـخيفة وليست خطأ فحسب، ومن المؤكد أن كثيرًا من الآراء التي تعتبر شائعة الآن سـتنبذها عصور مقبلة، كما ينبذ العصر الحالي الكثير من الآراء التـي كانت شـائعة يومًا ما. ويسترشـد «مل» بسـقراط، كمثال من تاريخ الفلسـفة على كبح الدولة بوسائلها القانونية والعقابية للآراء الفردية،

(1) Feyerabend, P. Concluding Unphilosophical Conversation, P.489.

فسقراط قد قتله مواطنوه بعد إدانة قانونية بتهمة المروق والفساد الأخلاقي، لأنه أفسد الشباب بمذاهبه وتعليماته، وتدل كل الدلائل على أن المحكمة اعتقدت بإخلاص أنه مذنب في هذه التهم وحكمت على الرجل الذي لعله كان أفضل من ولد من الرجال حتى ذلك الوقت، بالموت كمجرم.[1] وأيضًا يستقرئ «مل» التاريخ فيروي كيف واجه شهداء المسيحية من الإنكار والتعذيب مما سبب لنا سخطًا كبيرًا على معذبيهم واتهامهم بأفظع التهم، إلا أن الذين عذبوهم لم يكونوا بهذا القدر الكبير من السوء، كما نظن، بل كانوا أهل غيرة و إخلاص لعقيدتهم كما يدينون بها، والدليل على ذلك أن القديس «بولس» كان أحد أولئك الراجمين للشهداء، وأن الإمبراطور ماركوس أوريليوس هو أحد معذبيهم.

ثانيًا: رغم أن الرأي الذي أخمد قد يكون باطلًا فإنه، قد يتضمن - وعادة ما يتضمن جزءًا من الحقيقة، ولما كان الرأي العام أو السائد في أي موضوع نادرًا جدًا ما يكون هو الحقيقة كلها، فإنه لا أمل في الوصول إلى بقية الحقيقة إلا بالاصطدام مع الآراء المتعارضة.

ثالثًا: حتى إذا كان الرأي الملقن ليس جزءًا من الحقيقة، بل الحقيقة كلها، فإنه إذا لم تسمح بمعارضتها، و إذا لم تعارض فعلًا، بقوة وحماسة، فإن من يتلقونها سيعتنقونها كما لو كانت تحيزًا، ولا يفهمون أو يحسون كثيرًا بأسسها العقلية.

رابعًا: يتعرض معنى المذهب نفسه للضياع أو الضعف، و يفقد آثاره الحيوية مع الأخلاق والسلوك، إذ تتحول العقيدة إلى مجرد إعلان رسمي

---

(1) جون ستيوارت مل: الحرية. المرجع السابق. ص 54.

بلا أثر طيب، ولكنه يعرقل الأمور ويحول دون نمو أي اعتقاد حقيقي يشعر به القلب من المنطق أو التجربة الشخصية.

إن هذه الأسس الأربعة التي قال بها «مل» قد أخذها فايرآبند، كشاهد تاريخي على صحة أقواله، فقد سرد هذه الأسس في كتابه «وداعًا للعقل» ليؤكد على تعدديته وعلى نسبويته التي تؤمن بالتعددية والحرية الفردية.[1]

إن عقلانية فايرآبند العلمية النسبوية تريد مزيدًا من الحرية والفردية، فكليهما قادر على أن ينتج كائنات بشرية مكتملة النمو، إلا أن ثمة عواقب تقف ضد الحرية والفردية المنشودتين، من هذه العقبات المنهج الذي يقف في وجه التقدم العلمي الحر بما لديه من قواعد ومناهج تفرض على العلماء فرضًا، كما أن إضفاء الطابع المؤسسي على العلم يتعارض مع الحرية المنشودة التي ينادي بها فايرآبند، فالحرية هي أن نعطي الحقوق المتساوية لكل الاتجاهات المختلفة من بين الأقليات في البلاد الغربية والشعوب من سكان القارات غير الغربية، إلا أن العلم مازال يفرض سلطته الاستبدادية على الأفراد عن طريق فرض أنظمته المعرفية من أجل الاستغلال والسيطرة بمصطلحات التقدم والعقلانية العلمية.

يمكن أن ننتهي إلى القول إن «العقلانية العلمية النسبوية» عند فايرآبند، والتي كانت موضوع هذا الفصل، والتي تعددت أشكالها من معرفية واجتماعية وسياسية، إحدى العقلانيات العلمية المعاصرة التي تنادى بالتعددية والحرية الفردية، منتصرة بذلك على الغرور العقلاني الغربي الذي كان يعتقد أن عقلانيته المستندة على العلم الغربي، والعلم

(1) Feyerabend, P. Farwell to Reason, PP. 34 - 35.

الغــربي فقط، هي العقلانيــة النموذج التي يجب أن يحتذيها كل الشــعوب والحضارات الأخرى.

إن «العقلانية العلمية النســبوية» عند فايرآبنــد، ترى أن هيكل المعرفة الإنســانية لا يمكن أن يقتصر على الشــعوب الغربية وحدها دون سواها، بل لابد من مشــاركة الشــعوب غير الغربية في تشــييد صرح المعرفة الإنسانية. إن فايرآبنــد في نقده للتغــيرات والتصدعات الكثيرة التــي توجد في حوائط الشوفينية الغربية العقلانية، إنما يفعل ذلك من أجل أن يعطي الفرصة لتبادل الأفــكار والتقاليد والعقلانيات، لهذا تذهب فايــن ديلوريا Vine Deloria إلى القول: «إن عقلانية فايرآبند النســبوية تطالبنا بأن نكون أكثر شــجاعة عنــد تناولنا للعقلانية الغربيــة، وهذا لا نجده عند الكثيرين من الفلاســفة الآخريــن الذيــن يحاولون التعامــل مع نفس المشــكلات التــي يتعامل معها فايرآبند.»[1]

(1) Vine Deloria: «Perceptions and Maturity: Reflections on Feyerabend>s Point of View» In Beyond Reason», PP. 389 - 401.